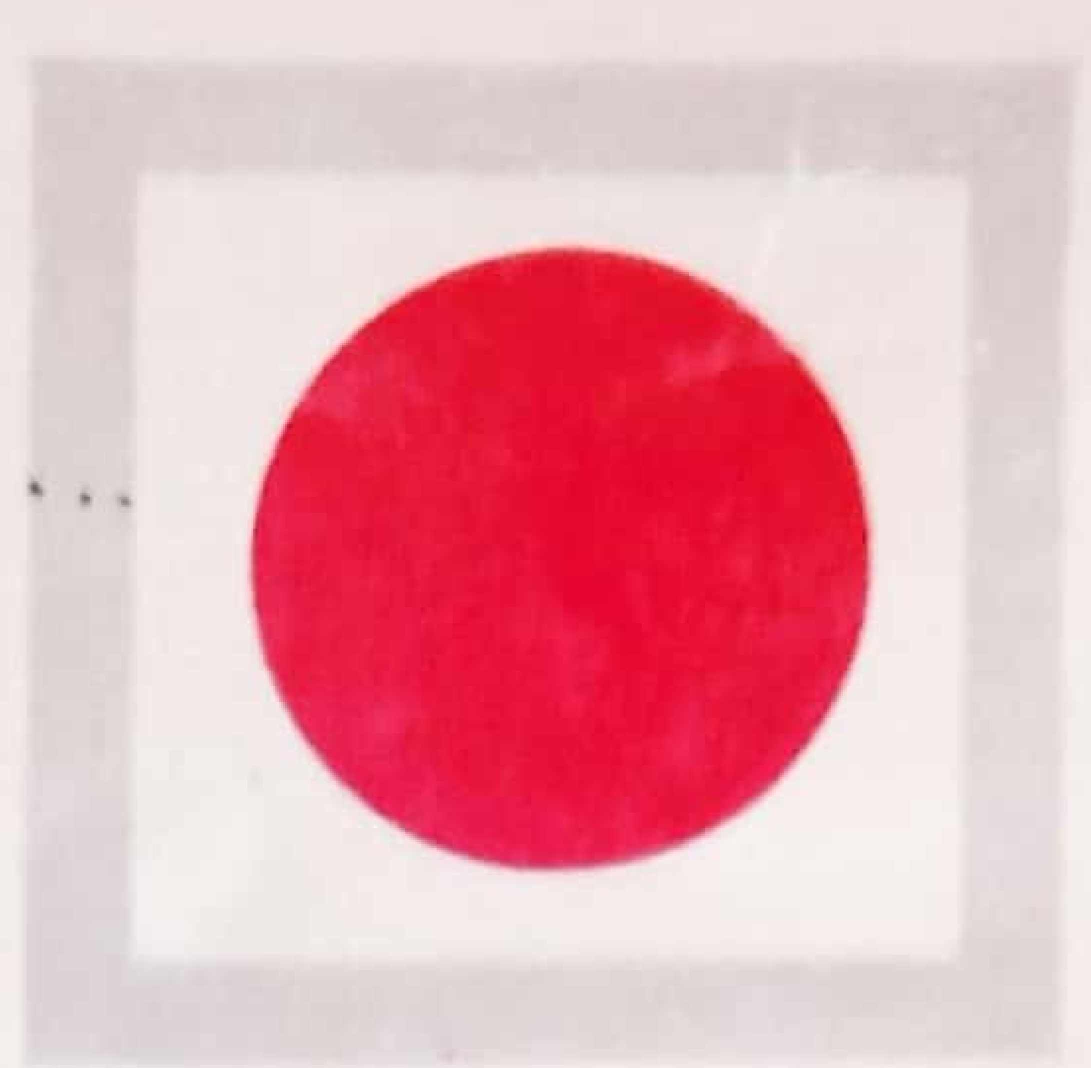




• ثقافة لجميع الأولاد •

◆ الشيخ الرئيس ◆

أبو علي الحسين بن سينا

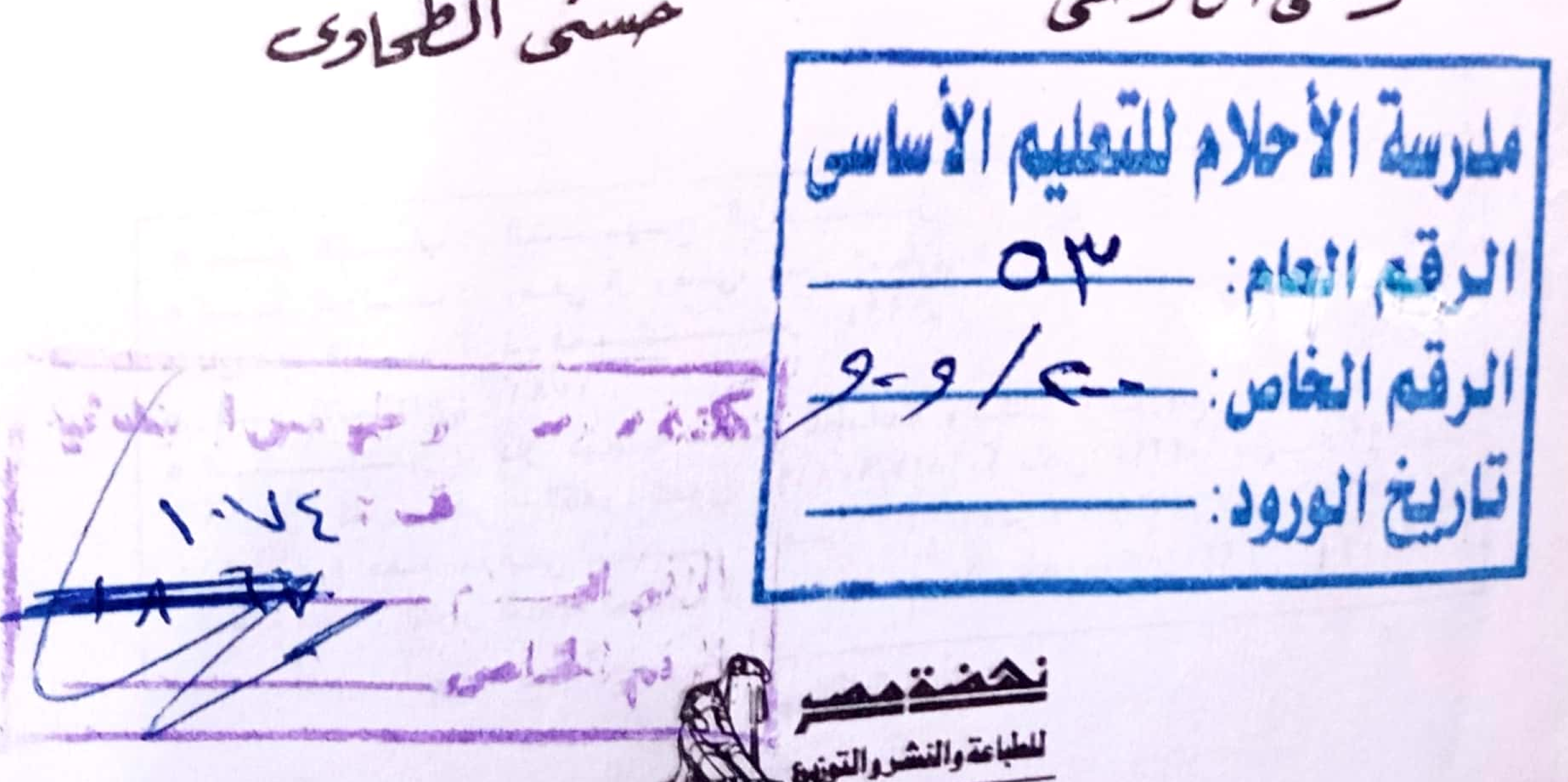
وصفي آل وصفي • حسني الطحاوي



قُوّادٌ وروّاد

الشيخ الرئيس
أبو علي الحسين بن سينا

وصفي آل وصفي
حسني الطحاوي



(١)

سَأَلَ « عَرَبِى » ابْنَةَ عمِّهِ « عَلْيَاء » بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَدْلُكُ يَدَيْهِ :

– أَيْنَ جَدِّى ؟ أَيْنَ جَدِّى ؟

فنظَرَتْ إِلَيْهِ عَلْيَاءُ لَحَظَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَضْحَكَ وَتُقَلِّدَهُ قَائِلَةً :

– أَيْنَ جَدِّى ؟ ! أَيْنَ جَدِّى ؟ !

وَأَضَافَتْ مُدَاعِبَةً :

– أَلاَ تَسْأَلُ عَنْ أَحَدٍ غَيْرِ جَدِّكَ ؟ !

فَأَضَافَ عَرَبِى بِلَهْجَةٍ مَرِحَةٍ وَهُوَ يَعُدُّ عَلَى أَصَابِعِهِ :

– عَمِّى فِى عَمَلِهِ . . وَامْرَأَةُ عَمِّى فَتَحَتْ لِىَ الْبَابَ . . وَأَنْتِ أَمَامِى . . أَمَّا جَدِّى فَلاَ أَعْرِفُ إِنْ كَانَ نَائِمًا أَمْ فِى غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ !

– حَسَنًا ، هُوَ فِى غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ مُنْذُ سَاعَة .

وَحَتَّى لاَ نُضِيعَ الْوَقْتَ فِى أَسْئِلَةٍ لاَ دَاعِى لَهَا ، أُخْبِرُكَ أَنَّنِى رَأَيْتُهُ يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ كِتَابٍ ضَخْمٍ . . وَأَنَّنِى فِى انْتِظَارِكَ لِنَدْخُلَ إِلَيْهِ فَيُحَدِّثَنَا عَنْ عَالِمٍ عَرَبِىٍّ عَظِيمٍ كَمَا وَعَدَنَا بِالأَمْسِ !

اِبْتَسَمَ عَرَبِى وَأَشَارَ لِعَلْيَاء أَنْ تَتَقَدَّمَهُ ، وَقَالَ :

– فِيمَ انْتِظَارُنَا إِذَنْ يَا آنِسَةُ . تَقَدَّمِينِى إِلَى قَاعَةِ الْمَعْرِفَة . . أَقْصِدُ الْمَكْتَبَة !

وَدَخَلاَ غُرْفَةَ الْمَكْتَبِ فَقَالَ الْجَدُّ يُرَحِّبُ بِهِمَا وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى كِتَابٍ كَبِيرٍ مَفْتُوحٍ أَمَامَهُ :

– أَهْلاً عَرَبِى . . أَهْلاً عَلْيَاءُ . . تَأَخَّرْتَ يَا عَرَبِى حَتَّى أَوْشَكْتُ أَنْ أُغْلِقَ هَذَا الْمَرْجِعَ الَّذِى اسْتَعَنْتُ بِهِ تَجْدِيداً لِمَعْلُومَاتِى عَنِ « الشَّيْخِ الرَّئِيس » . .

اِعْتَرَضَ عَرَبِى وَهُوَ يَجْلِسُ ، قَالَ :

- لَكِنَّكَ وَعَدْتَ يَا جَدِّى أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْ عَالِمٍ عَرَبِىٍّ ، لاَ عَنْ « رَئِيس » !

فَضَحِكَ الْجَدُّ ، وقَالَ مُوَضِّحاً :

- الشَّيْخُ الرَّئِيسُ لَقَبٌ مُخْتَصَرٌ لِلْعَالِمِ الْعَرَبِىِّ الْكَبِيرِ « أَبِى عَلِىٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ سِينَا » ، وَعَنِ ابْنِ سِينَا أُحَدِّثُكُمَا الْيَوْمَ . .

عِنْدَئِذٍ انْتَهَزَتْ عَلْيَاءُ الْفُرْصَةَ وَقَالَتْ تُمَازِحُ ابْنَ عَمِّهَا :

- أَلَمْ تَكُنْ تَلُومُنِى دَائِمًا عَلَى تَسَرُّعِى ، وَتَقُولُ لِى « مَنْ يُصْغِ لِلنِّهَايَةِ يَفْهَمِ الْبِدَايَةَ » ؟ !

قَالَتْ هَذَا وَجَلَسَتْ بِجَانِبِهِ ، تَنْظُرُ إِلَى جَدِّهَا وَتَبْتَسِمُ . .

* * *

بَدَأَ الْجَدُّ يُحَدِّثُ حَفِيدَيْهِ عَنِ ابْنِ سِينَا ، قَالَ :

- وُلِدَ أَبُو عَلِىٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ سِينَا عَامَ

٣٧٠ الْهِجْرِىَّ بِقَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ « بُخَارَى » فِى « أُوزْبكِسْتَان » شَرْقَ بَحْرِ « قَزْوِين » ، وَاتَّخَذَ بُخَارَى مَوْطِنًا لَه . وَكَانَ وَالِدُ ابْنِ سِينَا مِنْ أَنْصَارِ الْجَمَاعَةِ الدِّينِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ « الشِّيعَةِ » ، وَإِلَيْهَا انْضَمَّ أَيْضًا أَخُوهُ الْأَكْبَر . .

سَأَلَتْ عَلْيَاءُ :

– وَمَنْ هُمُ الشِّيعَةُ يَا جَدِّى ؟

فَأَجَابَ الْجَدُّ قَائِلاً :

– الشِّيعَةُ يَا عَلْيَاءُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَكَوَّنَتْ بَعْدَ مَقْتَلِ الْإِمَامِ « عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ » . . ابْنِ عَمِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزَوْجِ ابْنَتِهِ السَّيِّدَةِ « فَاطِمَةَ » ، وَكَانَتِ الشِّيعَةُ تُطَالِبُ بِالْخِلَافَةِ لِأَبْنَاءِ عَلِىٍّ وَالسَّيِّدَةِ فَاطِمَة . .

عِنْدَئِذٍ ضَحِكَ عَرَبِى وَقَالَ :

– خُذِى وَرَقَةً وَقَلَمًا يَا عَلْيَاءُ وَاكْتُبِى هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى لَا تَعُودِى لِسُؤَالِى عَنْه !

(٢)

قَالَ الْجَدُّ :

– كَانَ ابْنُ سِينَا يَسْمَعُ حِوَارَ وَالِدِهِ وَأَخِيهِ مَعَ رِجَالِ الشِّيعَةِ فَيُصْغِي لِمَا يَسْمَعُ بِاهْتِمَامٍ ، وَعِنْدَمَا يُحَاوِلُ وَالِدُهُ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنْ مَجْلِسِ الْكِبَارِ يَبْكِي وَيَزْهَدُ فِي الطَّعَامِ !

وَشَيْئًا فَشَيْئًا أَدْرَكَ وَالِدُهُ أَنَّهُ شَدِيدُ الرَّغْبَةِ فِي الْمَعْرِفَةِ ، فَأَحْضَرَ لَهُ مُعَلِّماً لِلْقُرْآنِ وَآخَرَ لِلأَدَبِ . وَسُرْعَانَ مَا أَقْبَلَ ابْنُ سِينَا عَلَى تِلاَوَةِ الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ وَحِفْظِهَا ، وَدِرَاسَةِ الأَدَبِ ، فَلَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّهُ وَتَقَدَّمَ تَقَدُّمًا كَبِيرًا فِي عُلُومِ الأَدَبِ !

وَوَجَّهَهُ وَالِدُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دِرَاسَةِ الْفِقْهِ عَلَى يَدِ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالدِّينِ هُوَ الشَّيْخُ « إِسْمَاعِيلُ الزَّاهِدُ » ، فَأَخَذَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ شَيْئًا كَثِيراً يَسَّرَ لَهُ

فَهْمَ الْمَعَانِى الْجَلِيلَةِ لِكَلَامِ اللهِ الَّذِى حَفِظَهُ وَزَادَ رَغْبَتَهُ فِى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ . .

فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ جَاءَ إِلَى بُخَارَى فَيْلَسُوفٌ مَعْرُوفٌ هُوَ « أَبُو عَبْدِ اللهِ النَّاتِلِىّ » ، فَأَلَحَّ ابْنُ سِينَا عَلَى وَالِدِهِ أَنْ يَسْتَضِيفَهُ فِى مَنْزِلِه . وَأَجَابَهُ وَالِدُهُ إِلَى طَلَبِهِ وَأَنْزَلَ أَبَا عَبْدِ اللهِ دَارَهُ ، وَهَكَذَا بَدَأَ الصَّبِىُّ الْعَبْقَرِىُّ يَقْرَأُ مَعَ أُسْتَاذِهِ الْجَدِيدِ كِتَابَ « إِيسَا غُوجِى » . .

وَسَكَتَ الْجَدُّ يَسْتَجْمِعُ أَفْكَارَهُ ، فَوَضَعَتْ عَلْيَاءُ سَبَّابَتَهَا عَلَى جَبْهَتِهَا وَجَعَلَتْ تُرَدِّدُ :

إِيسَا غُوجِى . . إِيسَا غُوجِى . . إِيسَا غُوجِى . .

وَكَأَنَّمَا تُحَاوِلُ فَهْمَ الْكَلِمَةِ بِتِكْرَارِهَا !

وَلَمْ يَتَمَالَكْ عَرَبِى نَفْسَهُ مِنَ الضَّحِكِ ، وَسَأَلَ :

– مَا هُوَ إِيسَا غُوجِى . . يَا جَدِّى ؟

فَابْتَسَمَ الْجَدُّ وَأَجَابَ :

– إِنَّهُ كِتَابٌ فِى الْمَنْطِقِ أَلَّفَهُ وَاحِدٌ مِنْ عُلْمَاءِ ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَكَلِمَةُ إِيسَاغُوجِى كَلِمَةٌ يُونَانِيَّةٌ مَعْنَاهَا « الْمَدْخَلُ » وَغَلَبَ اسْتِعْمَالُهَا بِمَعْنَى الْمَدْخَلِ إِلَى عِلْمِ الْمَنْطِقِ . .

وَأَسْنَدَتْ عَلْيَاءُ جَبْهَتَهَا إِلَى سَبَّابَتِهَا فَأَسْرَعَ عَرَبِى يَسْأَلُ وَهُوَ يَضْحَكُ :

– وَمَا هُوَ الْمَنْطِقُ . . يَا جَدِّى ؟ !

أَجَابَ الْجَدُّ مُتَمَهِّلاً لِتَتَمَكَّنَ عَلْيَاءُ مِنَ الْكِتَابَةِ :

– الْمَنْطِقُ هُوَ أَحَدُ فُرُوعِ الْفَلْسَفَةِ ، وَهُوَ يَبْحَثُ فِى الْوَسَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِى نَسْتَخْدِمُهَا لِلْحُصُولِ عَلَى النَّتَائِجِ السَّلِيمَةِ وَالْأَحْكَامِ الصَّائِبَةِ . . فَإِذَا قَالَتْ عَلْيَاءُ إِنَّ وَاحِدًا وَوَاحِدًا يُسَاوِيَانِ ثَلَاثَةً قَالَ لَهَا عَرَبِى عَلَى الْفَوْرِ إِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَنْطِقِى !

ضَحِكَ عَرَبِى . . وَضَحِكَتْ عَلْيَاءُ ، فَاسْتَأْنَفَ الْجَدُّ حَدِيثَهُ . . قَالَ :

– وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ ابْنُ سِينَا دِرَاسَةَ الْمَنْطِقِ عَلَى يَدِ أُسْتَاذِهِ النَّاتِلِىِّ شُغِلَ بِتَعَلُّمِ الطِّبِّ ، وَكَانَ قَدْ شَاهَدَ بَعْضَ الْمَرْضَى وَهُمْ يَسْتَسْلِمُونَ لِلْخُرَافَاتِ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ . . فَآمَنَ بِحَاجَةِ النَّاسِ الشَّدِيدَةِ إِلَى طِبٍّ مُتَقَدِّمٍ وَطُرُقِ عِلَاجٍ عِلْمِيَّةٍ . .

وَأَبْدَى عَرَبِى تَعَجُّبَهُ قَائِلًا :

– لَكِنَّهُ كَانَ صَغِيرَ السِّنِّ يَا جَدِّى ، وَدِرَاسَةُ الطِّبِّ لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ السَّهْلِ كَمَا يَقُولُ أُسْتَاذُ الْعُلُومِ . .

فَابْتَسَمَ الْجَدُّ وَقَالَ :

– النُّفُوسُ الْكَبِيرَةُ يَهُونُ أَمَامَ إِرَادَتِهَا كُلُّ صَعْبٍ يَا عَرَبِى ، وَلَقَدْ نَجَحَ ابْنُ سِينَا فِى دِرَاسَةِ الطِّبِّ نَجَاحًا كَبِيرًا . . حَتَّى أَنَّهُ تَوَصَّلَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلَاجَاتِ الْجَدِيدَةِ وَهُوَ فِى السَّادِسَةَ عَشْرَةَ !

سَأَلَ عَرَبِى فِى دَهْشَةٍ :

– لَكِنْ كَيْفَ فَعَلَ ذَلِكَ يَا جَدِّى ؟ !

فَأَجَابَ الْجَدُّ قَائِلاً :

– بَدَأَ ابْنُ سِينَا بِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ الطِّبِّيَّةِ ، ثُمَّ رَاحَ يَتَعَهَّدُ بَعْضَ الْمَرْضَى بِالْعِلاَجِ . . وَكُلَّمَا وُفِّقَ إِلَى دَوَاءٍ عَادَ يُجَرِّبُهُ وَيُسَجِّلُ النَّتَائِجَ الَّتِى يُحَقِّقُهَا . وَكَانَ يَصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ فِى الدِّرَاسَةِ وَاسْتِخْلاَصِ الْقَوَانِينِ الطِّبِّيَّةِ ، فَإِذَا غَمُضَ عَلَيْهِ أَمْرٌ كَانَ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّى طَالِبًا الْعَوْنَ مِنَ اللهِ تَعَالَى . . وَيَرْجِعُ إِلَى بَحْثِ مَا غَمُضَ عَلَيْهِ حَتَّى يَهْتَدِىَ إِلَى الْحَقِيقَةِ . .

وَظَلَّ يَسْتَزِيدُ مِنَ الْعِلْمِ فَيَزْدَادُ نَجَاحًا ، إِلَى أَنْ بَلَغَتْ شُهْرَتُهُ كُلَّ مَكَانٍ !

(٣)

أَحْضَرَتْ عَلْيَاءُ كُوبَ مَاءٍ لِجَدِّهَا فَتَنَاوَلَ دَوَاءً حَانَ مَوْعِدُهُ ، ثُمَّ قَالَ يُكْمِلُ حَدِيثَهُ :

– وَشَاءَتِ الْأَقْدَارُ أَنْ يَمْرَضَ سُلْطَانُ بُخَارَى « نُوحُ بْنُ مَنْصُورٍ السَّامَانِيُّ » ، وَعَجَزَ الْأَطِبَّاءُ عَنْ عِلَاجِهِ فَذَكَرُوا لَهُ ابْنَ سِينَا وَأَشَارُوا بِدَعْوَتِهِ . .

وَلَبَّى ابْنُ سِينَا الدَّعْوَةَ مُسْرِعاً ، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ لِأُسْرَةِ السُّلْطَانِ – مِنَ السَّامَانِيِّينَ – دَاراً لِلْكُتُبِ تَضُمُّ مَرَاجِعَ كَثِيرَةً فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُوم . وَوَفَّقَهُ اللهُ فِي عِلَاجِ السُّلْطَانِ ، فَأَذِنَ لَهُ ابْنُ مَنْصُورٍ فِي الاِطِّلَاعِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ مَكْتَبَةِ الْأُسْرَةِ . وَكَانَ ابْنُ سِينَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ مَنْزِلَةَ الْإِنْسَانِ وَمَكَانَتَهُ تَرْتَفِعُ بِقَدْرِ عِلْمِهِ ، لِذَلِكَ عَكَفَ عَلَى مُجَلَّدَاتِ الْمَكْتَبَةِ يُطَالِعُهَا وَيَسْتَفِيدُ بِكُلِّ مَا فِيهَا . .

وَمَضَتِ الأَيَّامُ فَبَلَغَ ابْنُ سِينَا الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ ، وَعِنْدَئِذٍ بَدَأَتْ أَحْوَالُهُ تَسُوءُ . .

تُوُفِّيَ وَالِدُهُ الَّذِي كَانَ يُشَجِّعُهُ وَيَشُدُّ أَزْرَهُ ، وَاضْطَرَبَتْ أُمُورُ الدَّوْلَةِ السَّامَانِيَّةِ مِمَّا اضْطَرَّهُ إِلَى مُغَادَرَةِ بُخَارَى بَعْدَ طُولِ إِقَامَتِهِ بِهَا . وَقَصَدَ مَدِينَةَ « جُرْجَانَ » عَلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ بَحْرِ « قَزْوِينَ » لِيَدْخُلَ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِهَا « قَابُوسٍ » ، إِلاَّ أَنَّ سُوءَ الْحَظِّ لاَزَمَهُ بِجُرْجَانَ فَفَقَدَ قَابُوسُ مَنْصِبَهُ . .

* * *

صَمَتَ الْجَدُّ لَحَظَاتٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمَرْجِعِ الْمَفْتُوحِ أَمَامَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

– وَخَرَجَ ابْنُ سِينَا مِنْ جُرْجَانَ إِلَى بَلْدَةٍ قَرِيبَةٍ فَأَصَابَهُ بِهَا الْمَرَضُ ...

وَقَبْلَ أَنْ يُتِمَّ عِبَارَتَهُ قَالَتْ عَلْيَاءُ تُظْهِرُ أَسَفَهَا :

– مِسْكِينٌ ابْنُ سِينَا ، لَقِيَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِبِ بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ !

فَأَسْرَعَ الْجَدُّ يَقُولُ مُسْتَدْرِكًا :

– لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى سَاقَ إِلَيْهِ رَجُلاً يُحِبُّ الْعِلْمَ اسْمُهُ « أَبُو مُحَمَّدٍ الشِّيرَازِىُّ » ، اشْتَرَى لَهُ دَارًا بِمَدِينَةِ جُرْجَانَ وَأَنْزَلَهُ بِهَا . وَفِى تِلْكَ الدَّارِ عَقَدَ ابْنُ سِينَا الْكَثِيرَ مِنَ النَّدَوَاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْبَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ ، وَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ عَدَدٌ مِنَ التَّلامِيذِ الْمُخْلِصِينَ . . وَوَضَعَ فِيهَا الْفُصُولَ الْأُولَى مِنْ كِتَابِهِ الطِّبِّىِّ الْمَشْهُورِ الَّذِى أَسْمَاهُ « الْقَانُون » . .

وَذَاتَ يَوْمٍ تَسَلَّمَ ابْنُ سِينَا رِسَالَةً مِنْ وَالِدَةِ الْأَمِيرِ « مَجْدِ الدَّوْلَةِ » أَمِيرِ « الرَّىِّ » ، وَمَكَانُهَا قَرِيبٌ مِنْ « طَهرَانَ » عَاصِمَةِ إِيرَان . طَلَبَتْ مِنْهُ وَالِدَةُ الْأَمِيرِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى الرَّىِّ لِعِلاَجِ ابْنِهَا ، فَاسْتَجَابَ لِطَلَبِهَا وَصَحِبَ مَعَهُ وَاحِداً مِنْ تَلاَمِيذِهِ هُوَ « أَبُو عُبَيْدَةَ الْجُوز جَانِى » . .

وَوَجَدَ ابْنُ سِينَا الْأَمِيرَ فَرِيسَةً لِمَرَضٍ شَدِيدٍ ،

فَأَقَامَ بِجَانِبِهِ يُخَفِّفُ عَنْهُ وَيَرْعَاهُ بِعِنَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ الطِّبِّيَّة . غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ بُحُوثَهُ الْعِلْمِيَّةَ وَلَمْ يَنْصَرِفْ عَنِ التَّأْلِيفِ ، فَشَرَعَ يُؤَلِّفُ كِتَابًا جَدِيدًا اسْمُهُ « الْمَعَاد » .

رَفَعَتْ عَلْيَاءُ يَدَهَا تَهُزُّ الْقَلَمَ وَتَقُولُ :

– وَالْمَعَادُ يَعْنِي . . . يَعْنِي . . .

فَقَالَ الْجَدُّ وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

– الْمَعَادُ يَعْنِي الْمَرْجِع . .

وَأَضَافَ بِسُرْعَةٍ :

– وَجَاءَ إِلَى الرَّيِّ الْأَمِيرُ « شَمْسُ الدَّوْلَةِ » ، أَمِيرُ « هَمَذَانَ » الْوَاقِعَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ « الْعِرَاقِ » . . فَتَوَطَّدَتْ صِلَةُ ابْنِ سِينَا بِهِ . . وَاسْتَطَاعَ بِعَوْنِ اللهِ أَنْ يَشْفِيَهُ مِنْ مَرَضٍ فِي الْأَمْعَاءِ فَمَنَحَهُ الْأَمِيرُ كَثِيراً مِنَ الْمِنَحِ وَالْهَدَايَا !

(٤)

قَالَ الْجَدُّ يُحَدِّثُ حَفِيدَيْهِ :

– عَرَفَ الْأَمِيرُ شَمْسُ الدَّوْلَةِ فَضلَ ابْنِ سِينَا ، فَلَمَا حَانَ مَوْعِدُ عَوْدَتِهِ إِلَى بِلادِهِ اصْطَحَبَهُ مَعَهُ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَوَلَّى رِئَاسَةَ الْوِزَارَةِ فِي هَمَذَان . وَقَبِلَ ابْنُ سِينَا الْقِيَامَ بِأَعْبَاءِ الْوِزَارَةِ ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ مُتَشَدِّدًا فِي آرَائِهِ حَازِمًا فِي أَوَامِرِهِ فَثَارَ الْجُنْدُ عَلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ وَطَالَبُوا بِقَتْلِهِ !

اِنْزَعَجَتْ عَلْيَاءُ وَسَأَلَتْ فِي انْفِعَالٍ :

– وَهَلْ نَفَّذَ الْأَمِيرُ شَمْسُ الدَّوْلَةِ مَا طَالَبُوا بِهِ ؟ !

فَأَسْرَعَ الْجَدُّ يُطَمْئِنُهَا قَائِلاً :

– كَلاَّ يَا عَلْيَاءُ . . لَقَدْ رَفَضَ الْأَمِيرُ أَنْ يَقْتُلَهُ لِمَا عَرَفَ فِيهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَنُبُوغٍ ، وَاكْتَفَى بِأَنْ أَمَرَ بِنَفْيِهِ إِرْضَاءً لِلثَّائِرِينَ وَإِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ !

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَابْنُ سِينَا مُخْتَبِئٌ بِدَارِ صَدِيقٍ مِنْ أَعْيَانِ هَمَذَانَ ، وَقَدْ غَلَبَهُ التَّأَثُّرُ مِنْ مَوْقِفِ الْأَمِيرِ وَتَعَصُّبِ الْعَسْكَرِ ضِدَّهُ . ثُمَّ حَدَثَ أَنْ عَاوَدَ الْمَرَضُ شَمْسَ الدَّوْلَةِ ، فَجَدَّ فِي الْبَحْثِ عَنْ ابْنِ سِينَا حَتَّى وَجَدَهُ وَاعْتَذَرَ لَه !

وَهَكَذَا رَجَعَ ابْنُ سِينَا لِعَلَاجِ شَمْسِ الدَّوْلَةِ ، فَقَرَّبَهُ الْأَمِيرُ وَرَدَّهُ إِلَى الْوِزَارَةِ . . وَمِنْ رِئَاسَةِ الْوِزَارَةِ اكْتَسَبَ ابْنُ سِينَا ذَلِكَ اللَّقَبَ الَّذِي عُرِفَ بِهِ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ : الشَّيْخَ الرَّئِيس !

* * *

سَأَلَ عَرَبِي وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

– وَهَلِ اسْتَمَرَّ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ يَعْمَلُ رَئِيسًا لِلْوِزَارَةِ بَقِيَّةَ حَيَاتِه ؟ !

فَأَجَابَ الْجَدُّ وَهُوَ يَهُزُّ رَأْسَه نَفْيًا :

– لَا يَا عَرَبِي . لَقَدْ ظَلَّ يَقُومُ بِأَعْبَاءِ الْوِزَارَةِ

إِلَى أَنْ نُحِّىَ عَنْ مَنْصِبِهِ قَبْلَ وَفَاةِ أَمِيرِ هَمَذَانَ ، فَلَمَّا تُوُفِّىَ شَمْسُ الدَّوْلَةِ عام ٤١٢ الْهِجْرِى عَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ مِنْ هَمَذَانَ لِيَنْطَلِقَ بِعِلْمِهِ فِى الْبِلَادِ يُعَالِجُ النَّاسَ وَيَقِفُ عَلَى مَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلُومِ . .

وَتَطَوَّرَتِ الْأَحْدَاثُ بِسُرْعَةٍ . .

فَقَدِ اتَّهَمَهُ الْوَزِيرُ الْجَدِيدُ بِمُكَاتَبَةِ الْأَمِيرِ « عَلَاءِ الدَّوْلَةِ » أَمِيرِ « أَصْفَهَانَ » وَمَكَانُهَا جَنُوبَ طَهْرَانَ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَسَجَنَهُ . .

كَسَا الضِّيقُ مَلَامِحَ عَلْيَاءَ وَهِىَ تَقُولُ :

– مِسْكِينٌ ابْنُ سِينَا ، لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ فِى السِّجْنِ !

فَصَحَّحَ الْجَدُّ كَلَامَهَا قَائِلاً :

– لَا يَا عَلْيَاءُ . . لَمْ يَمْنَعِ الاِعْتِقَالُ ابْنَ سِينَا عَنِ الْعَمَلِ ، فَقَدْ أَلَّفَ فِى الْمُعْتَقَلِ كِتَابَ « الْقُولَنْجِ » عَنْ عِلَاجِ الْأَمْعَاءِ الْغَلِيظَةِ . . وَقِصَّةَ « حَىِّ بْنِ يَقْظَانَ » . .

نَظَرَتْ عَلْيَاءُ إِلَى عَرَبِى وَهَزَّتْ يَدَهَا مُسْتَفْهِمَةً .

فَضَحِكَ عَرَبِى وَطَلَبَ مِنْ جَدِّهِ أَنْ يُحَدِّثَهُمَا عَنْ قِصَّةِ حَىِّ بْنِ يَقْظَانَ . . لأَنَّ عَلْيَاءَ تَسْأَلُ عَنْهَا وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ بِهَا مِنْ قَبْلُ !

قَالَ الْجَدُّ وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

– لَوْ صَبَرْتَمَا قَلِيلاً لأَخْبَرْتُكُمَا !

قِصَّةُ حَىِّ بْنِ يَقْظَانَ قِصَّةٌ فَلْسَفِيَّةٌ ، يَشْرَحُ فِيهَا ابْنُ سِينَا حَالَ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ « بَيْتِ الْمَقْدِسِ » . . هُوَ حَىُّ بْنُ يَقْظَانَ الَّذِى خَرَجَ يَتَجَوَّلُ فِى الْمُدُنِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدَهُ أَبُوهُ بِمَفَاتِيحِ الْعُلُومِ كُلِّهَا . .

وَهِىَ تَدْعُو إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْفَضِيلَةِ وَتَجَنُّبِ الرَّذَائِلِ . .

(٥)

رَجَعَ الْجَدُّ إِلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الْكِتَابِ الْمَفْتُوحِ أَمَامَهُ ، ثُمَّ وَصَلَ كَلَامَهُ . . قَالَ :

– اِشْتَدَّتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ أَمِيرِ أَصْفَهَانَ عَلَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَمِيرِ هَمَذَانَ الَّذِى تَوَلَّى الْحُكْمَ بَعْدَ شَمْسِ الدَّوْلَةِ ، ثُمَّ نَشِبَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا فَانْتَصَرَ عَلَاءُ الدَّوْلَة . وَاسْتَطَاعَ ابْنُ سِينَا أَنْ يَرْحَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ حَيْثُ لَقِىَ التَّرْحِيبَ مِنْ أَمِيرِهَا ، فَأَقَامَ إِلَى جِوَارِهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً أَلَّفَ فِيهَا بَعْضَ الْكُتُبِ فِى الْفَلْسَفَةِ وَاشْتَغَلَ أَيْضًا بِعِلْمِ الْفَلَكِ فَوُفِّقَ إِلَى اخْتِرَاعِ آلَاتٍ جَدِيدَةٍ لِرَصْدِ الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُوم . .

وَأَخِيرًا تُوُفِّىَ ابْنُ سِينَا عَامَ ٤٢٨ الْهِجْرِىَّ بِهَمَذَانَ ، وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهَا فِى رِفْقَةِ الْأَمِيرِ عَلَاءِ الدَّوْلَة . .

وَسَكَتَ الْجَدُّ فَقَالَ عَرَبِى :

– رَحِمَ اللهُ ابْنَ سِينَا ، الشَّيْخَ الرَّئِيسَ . . الطَّبِيبَ . . الْفَيْلَسُوفَ . . وَعَالِمَ الْفَلَكِ . .

فَأَضَافَ الْجَدُّ وَهُوَ يَضْحَكُ . .

– وَالشَّاعِرُ أَيْضًا يَا عَرَبِى . .

قَالَ ابْنُ سِينَا وَهُوَ يَدْخُلُ الْمُعْتَقَلَ ، فِى هَمَذَانَ ، مَعَ تِلْمِيذِهِ الْأَمِينِ الْجُوزْجَانِىِّ :

« دُخُولِى بِالْيَقِينِ كَمَا تَرَاهُ

وَكُلُّ الشَّكِّ فِى أَمْرِ الْخُرُوجِ ! »

رَحِمَ اللهُ ابْنَ سِينَا . .

دَرَسَ الْأَدَبَ وَاللُّغَةَ وَالْحِسَابَ وَالْهَنْدَسَةَ وَالْمَنْطِقَ وَعِلْمَ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةَ وَالْفِقْهَ وَالتَّفْسِيرَ . . غَيْرَ أَنَّهُ نَبَغَ فِى الْفَلْسَفَةِ وَالطِّبِّ . .

وَذَاعَ صِيتُهُ كَطَبِيبٍ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ ، فِى عَصْرِهِ وَبَعْدَ عَصْرِهِ . فَإِنَّ كِتَابَهُ « الْقَانُونَ » الَّذِى وَصَفَ فِيهِ

الْأَمْرَاضِ الْمُخْتَلِفَةِ حَتَّى لاَ يَخْتَلِطَ الْأَمْرُ على الْأَطِبَّاءِ عِنْدَ تَشْخِيصِهَا ، ظَلَّ يُدَرَّسُ فِي جَامِعَاتِ أُورُبَّا قُرُونًا طَوِيلَةً بَعْدَ وَفَاتِهِ بِاعْتِبَارِهِ مِنْ أَهَمِّ الْمَرَاجِعِ الطِّبِّيَّةِ . .

وَمِمَّا يُذْكَرُ لِلشَّيْخِ الرَّئِيسِ بِالْخَيْرِ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ حَقَنَ مَرْضَاهُ تَحْتَ الْجِلْدِ بِمَادَّةٍ مُخَدِّرَةٍ قَبْلَ الْعَمَلِيَّاتِ الْجِرَاحِيَّةِ كَيْ لاَ يُحِسُّوا الْآلاَمَ الشَّدِيدَةَ الَّتِي تُسَبِّبُهَا الْجِرَاحَةُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأَطِبَّاءُ يَرْبِطُونَ الْمَرْضَى بِالْقُيُودِ حَتَّى لاَ يَنْتَفِضُوا مِنْ قَسْوَةِ الْأَلَمِ !

كَذَلِكَ اسْتَخْدَمَ ابْنُ سِينَا الْعِلاَجَ النَّفْسِيَّ ، وَمِثَالُ ذَلِكَ حَالَةُ الْبَقَرَةِ . .

سَأَلَتْ عَلْيَاءُ فِي دَهْشَةٍ :

– الْبَقَرَةُ ؟ هَلْ عَالَجَ ابْنُ سِينَا الْحَيَوَانَاتِ أَيْضًا ؟ !

فَأَجَابَ الْجَدُّ وَهُوَ يَبْتَسِمُ :

– لاَ ، حَالَةُ الْبَقَرَةِ حَالَةٌ مَرَضِيَّةٌ أَصَابَتْ شَابًّا كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ بَقَرَةٌ . لِذَلِكَ امتنع عَنِ طَعَامِ النَّاسِ وَرَاحَ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ وَهُوَ يَصِيحُ : « اذْبَحُونِى وَاطْبُخُوا أَكْلَةً لَذِيذَةً مِنْ لَحْمِى ! » . .

وَزَادَ هُزَالُ الْمَرِيضِ ، فَتَظَاهَرَ ابْنُ سِينَا بِأَنَّهُ الْجَزَّارُ جَاءَ لِذَبْحِ الْبَقَرَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ وَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى عُنُقِ الْفَتَى رَفَعَهَا لِيُعْلِنَ أَنَّ الْبَقَرَةَ هَزِيلَةٌ وَلاَ يَجُوزُ أَنْ تُذْبَحَ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ تَأْكُلَ مَا يُقَدَّمُ لَهَا مِنْ طَعَامٍ وَتَسْمَن !

وَهَكَذَا أَقْبَلَ الْمَرِيضُ عَلَى الطَّعَامِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اسْتَعَادَ قُوَّتَهُ الْبَدَنِيَّةَ ، وَسَاعَدَ ذَلِكَ فِى شِفَاءِ مَرَضِهِ النَّفْسِى . .

* * *

أَغْلَقَ الْجَدُّ الْكِتَابَ وَسَأَلَ حَفِيدَيْهِ :

– وَالآنَ ، مَا رَأْيُكُمَا فِى الشَّيْخِ الرَّئِيسِ . ابْنِ سِينَا ؟

فَقَالَ عَرَبِى :

- عَالِمٌ عَظِيمٌ يَا جَدِّى !

وَضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وَهِىَ تَقِفُ وَتَضَعُ الْقَلَمَ وَالْوَرَقَةَ فَوْقَ الْمَكْتَبِ ، وَقَالَتْ :

- حَتَّى الْبَقَرَةُ أَرْجَعَ لَهَا عَقْلَها ! !



وَاسْتَطاعَ بِعَوْنِ اللهِ أَنْ يَشْفِيَه .



لم يَمْنَع الاعتقالُ ابنَ سينا عَنِ العَمل .